منشورات اتحاد
المؤرخين العرب
القاهرة

تاريخ الوطن العربى عبر العصور

الوفود و السفارات

حصاد (١٧)

ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب بمقره بالقاهرة

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

أ.د/ علي بن محمد عودة الغامدي[*]

أضواء جديدة

على السفارة الثانية لملك السكسون اوتّو الأول إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر بالأندلس

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد

تحدثت بعض المصادر الغربية عن مراسلات جرت بين الخليفة الأموي في الأندلس، عبد الرحمن الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م) وبين ملك السكسون أوتو الأول(٣٢٤-٣٦٢هـ/٩٣٦-٩٧٣م). وكان ذلك قبل تتويج أوتو امبراطوراً[١].

وكان هدف المراسلات بالأساس سياسياً. وقد بدأ أوتو بهذه المراسلات يشكو فيها من غزوات إمارة إسلامية قائمة في جبال الألب على بلاده، وهي إمارة جبل القلال التي يتحدث عنها ابن حوقل فيقول: (وجبل القلال الذي بنواحي إفرنجة بأيدي المجاهدين عمارة وحرث ومياه وأراض تقوت من لجأ إليهم، فلما وقع عليه المسلمون عمّروه، وصاروا في وجوه الأفرنجة والوصول إليهم ممتنع لأنهم يسكنون في وجه الجبل، فلا طريق إليهم، ولا مُتسلق عليهم إلا من جهة هم منها آمنون، ومقداره في الطول نحو يومين) [٢].

---

* أستاذ تاريخ العصور الوسطى بقسم التاريخ - جامعة أم القرى ، مكة المكرمة .

وهذه الإمارة الإسلامية هي التي تطلق عليها المصادر الغربية اسم فراكسينتوم Fraxinetum، وهو اسم القلعة التي كانت قاعدة هذه الإمارة، والراجح أن هذه القلعة كانت تقع في نفس الموقع الذي تقع عليه حالياً قرية جارد فرينية La Garde - Freinet في سفوح جبال الألب في جنوب فرنسا، إلى الشمال من ميناء طولون الفرنسي. ويرجع تأسيس هذه الإمارة إلى جماعة من المجاهدين المسلمين الأندلسيين يقدر عددهم بعشرين مجاهداً، قذفت الريح بمركبهم فرسوا في سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م على ساحل بروفانس Provence في خليج سان – تروبيس Saint - tropes ، فنزلوا إلى البر ليلاً وأغاروا عن قرية تروبيس، ثم صعدوا في إحدى جبال الألب ويُسمى موروس Murus ، واتخذوا منه قاعدة وبنوا قلعتهم الشهيرة، وبعثوا رسولاً إلى الأندلس يحث الراغبين في الجهاد على الالتحاق بهم، فتوافدت عليهم أعداد أخرى من الأندلس فشدوا من أزرهم وتوسعوا جميعاً في غاراتهم، ولم يلبثوا أن سيطروا على معظم الممرات التي تربط إيطاليا ببقية قارة أوربا عبر جبال الألب وبنوا المزيد من الحصون، وغزوا مناطق كثيرة في شمال إيطاليا وجنوب فرنسا وألمانيا، وبلغت غزواتهم بحيرة جنيف، وفرضوا الأتاوات على الراغبين في المرور بسلام عبر جبال الألب من الغربيين، وظلوا زهاء خمس وثمانين سنة يشكلون قلقاً شديداً للقوى الأوروبية المجاورة لهم. وكانت نهاية هذه الإمارة الإسلامية العجيبة بسبب ما حدث ليلة السادس من شوال سنة ٣٦١هـ/ ٢١ يوليه ٩٧٢م، عندما أسر المجاهدون المسلمون عددا من الزوار الغربيين كانوا عائدين من روما إلى فرنسا عبر إحدى ممرات جبال الألب، وكان على رأس أولئك الأسرى رئيس دير كلوني مايول Maiolus of Cluny ، ولم يطلق المسلمون سراح مايول وأصحابه إلا بعد دفع فدية كبيرة. وكان لتلك الحادثة دوي هائل في الغرب، لا سيما في برجنديا وبروفانس، فتقدم المحاربون من تلك المناطق وغيرها وهاجموا إمارة فراكسينتوم، وبعد حرب ضروس دامت زهاء ثلاث سنوات تمكن المحاربون الفرنسيون من اقتحام تلك القلعة في سنة ٣٦٤هـ/٩٧٥م وقتلوا معظم المسلمين من أهلها ومن بقي منهم على قيد الحياة فقد تعرضوا للاسترقاق وأُجبروا على التنصُر [٣] .

بعد أن ازدادت قوة أوتو في ألمانيا وبسط نفوذه على لمبارديا في ايطاليا دخل العديد من أمراء الاقطاع المجاورين لجبال الألب تحت نفوذه كافصال إقطاعيين، ومن تلك الاقطاعيات التي أصبحت تدين بالتبعية لأوتو منطقة برجنديا[٤] . ولما كانت غزوات إمارة جبل القلال (فراكسينتوم) موجهة إلى تلك الإمارات وما يتبعها من مواقع وأديار فقد شكى الرهبان والأمراء إلى أوتو غارات مسلمي فراكسينتوم. وقد اعتبر أوتو تلك الإمارة الإسلامية تابعة لخليفة الأندلس عبد الرحمن الناصر، فأرسل إليه في سنة ٣٤١هـ/ ٩٥٣م سفارة تطلب منه كف غارات فراكسينتوم، فرد عبد الرحمن الناصر بإرسال مبعوث يحمل رسالة ينفي فيها مسؤوليته عن تلك

الإمارة، ويبدو أن الرسالة تضمنت دعوة أوتو لاعتناق الإسلام، ولكن الرواية الغربية تزعم أن رسالة الناصر تضمنت (تجديفاً وسباباً ضد المسيح) [٥] .

وعلى الرغم من أن الرواية الغربية لم تورد نص رسالة عبد الرحمن الناصر إلى أوتو، واكتفت بالإشارة إلى أن الرسالة تضمنت تجديفاً وسباباً ضد المسيح عليه السلام، فإن الأمر الذي لا شك فيه أن رسالة الناصر لا يمكن البتة أن تحتوي على سباب ضد المسيح، لأن الإساءة للمسيح ضد العقيدة الإسلامية نفسها التي كرّمت المسيح عليه السلام واعتبرته من أولي العزم من الرسل وأنه كان وجيهاً في الدنيا والآخرة. ولا يمكن أن تصدر ضده إساءة أو سب من خليفة مسلم[٦]. والراجح أن رسالة الناصر تضمنت دعوة الملك أوتو لاعتناق الإسلام، كما يبدو أن الناصر بيّن في رسالته زيف وخطأ اعتقاد النصارى في ألوهية المسيح ، وأنه مثل آدم خلقه الله بكلمة منه، وما زعمته الرواية الغربية من تجديف وسب إنما هو وفق المنظور النصراني الضال الذي يعتبر إنكار ألوهية المسيح نوعاً من التجديف.

ومهما يكن من أمر فيبدو أن المضمون الديني لرسالة عبد الرحمن الناصر أثارت غضب مستشاري أوتو فاعتبروا إنكار ألوهية المسيح عليه السلام هجوماً على دينهم، وأن الناصر بعيد جداً عن معرفة العقيدة الصحيحة، بزعمهم، وحثوا أوتو على كتابة رد مضاد لرسالة الناصر، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تضمن الرد هجوماً بذيئاً ومباشراً على النبي صلى الله عليه وسلم ، يبدو أنه اشتمل على بعض العبارات المقذعة التي راجت في بعض كتب الجدل البيزنطية والأسبانية المعادية للإسلام[٧] . وكلّف أوتو سنة ٣٤٤هـ/٩٥٦م رئيس أحد الأديار من الرهبان يدعى يوحنا الجورزي Johon of Gorze بحمل رسالته إلى الخليفة عبدالرحمن الناصر ، وأمره بأن يدافع عن النصرانية في بلاط خليفة قرطبة. وكان يوحنا الجورزي متضلعاً في علوم اللاهوت وبارعاً في فن الجدل ، وأبدى يوحنا الجورزي حماسة شديدة في أداء تلك المهمة بل وأفصح عن رغبته للملك أوتو بأنه سوف يسعى إلى أن ينال ما زعمه استشهاداً على يد الناصر عن طريق سب النبي محمد صلى الله عليه وسلم وشجب الإسلام أمام الخليفة ودعوته لنبذ الإسلام واعتناق النصرانية، فحاول أوتو أن يخمد تلك الرغبة من نفس يوحنا الجورزي قبل مسيره، إلا أن تلك الرغبة الجامحة ظلت تعتلج في صدره . وغادر يوحنا الجورزي سكسونيا في صحبة راهب آخر حاملاً رسالة أوتو وهدايا ثمينة بعثها الأخير للخليفة عبدالرحمن الناصر جرياً على العادات الدبلوماسية بين ملوك ذلك العصر. ولما وصلا إلى قرطبة أُستُقبلا بحفاوة من جانب موظفي الدولة، وأنزلوهما في دار الضيافة الحكومية[٨] .

وكان من ضمن موظفي الدولة الذين استقبلوا مبعوث الملك أوتو موظف يهودي يعمل في بلاط الخليفة عبدالرحمن الناصر، وأسقف أسباني مستعرب كان يحظى بثقته[٩] . ويبدو أنهما قد اكتشفا بعد اجتماعهما ومحادثتهما مع الراهب يوحنا الجورزي، مضمون رسالة الملك أوتو إلى الناصر ، وعرفا أن الراهب تحدوه رغبة قوية في السير على خطى حركة المنتحرين المسعورين (أو حركة شهداء قرطبة كما تسميها المصادر الغربية) [١٠] قبل نحو مئة سنة من سب النبي محمد صلى الله عليه وسلم وشجب الإسلام بحضرة الخليفة الناصر حتى ينال ما يعتبره (استشهاداً)، وقد أخبر الموظفان الخليفة الناصر بمضمون رسالة أوتو التي تشمل هجوماً مباشراً على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، والرغبة التي تجيش في صدر الراهب يوحنا الجورزي بسب النبي صلى الله عليه وسلم وشجب الإسلام علناً أمام الخليفة حتى يصدر عليه الحكم بالإعدام فينال ما يعتقده استشهاداً. ولم تكن تلك الحركة بعيدة عن ذهن الناصر فقد حدثت في عهد جده الثالث عبدالرحمن الأوسط (٢٠٦-٢٣٨هـ/ ٨٢٢ - ٨٥٢م) وجده الثاني محمد الأول (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦م)، كما شهد عهد عبدالرحمن الناصر نفسه بعض ذيول تلك الحركة[١١] . لذلك لم يرغب في ذلك المصير البائس لسفارة أكبر ملك نصراني في أوربا في ذلك الحين. ورغبة في تجنب ذلك المصير رفض الناصر استقبال البعثة، ولما طالب المبعوث يوحنا الجورزي بالمثول بين يدي الخليفة، رفض الأخير الاستجابة لطلبه، وتحجج بأنه سبق أن أرسل رسولاً من لدنه إلى الملك أوتو فاحتجزه عنده زهاء ثلاث سنوات، وأن الناصر سوف يفعل الشيء نفسه مع بعثة يوحنا الجورزي، وسوف يحتجزه ثلاث' أضعاف تلك المدة. وذكر يوحنا المتزي John of Metz - الذي كان صديقاً للمبعوث يوحنا الجورزي وكتب سيرته بعد وفاته سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م - أنه من المعروف لديه أن (شريعة المسلمين المرعبة تُحرِّم أي هجوم ضد دينهم، وأن عقوبة الموت تنتظر كل من يفعل ذلك بدون رحمة، وليس في مقدور أحد الشفاعة لمن يُقْدم على ذلك، وأن الملك والشعب مربوطون بعقدة واحدة، فبينما يُعاقِب الملك كل مسيء ضد دينهم بالموت، فإنه نفسه إذا ما تأخر عن تنفيذ ذلك سوف يُقْتَل على الفور) [١٢] . ومن الواضح أن قول يوحنا المتزي بأن الملك سوف يُقتل في حالة تأخره في تنفيذ عقوبة الموت بمن يسيء للدين، تفسير غير صحيح لموقف عبدالرحمن الناصر الرافض مقابلة مبعوث أوتو يوحنا الجورزي.

وقد جرت مناقشة بين الأسقف المستعرب الذي يحظى بثقة الناصر وبين الراهب يوحنا الجورزي حول القضية، حيث ذكّر الأسقف الراهب بأن رسالة أوتو تعتبر طعنة انتقامية ورداً سريعاً لاذعاً

على الرسالة المرسلة إليه، والتي اعتبرها تجديفية، وطلب الأسقف المستعرب من الراهب القليل من الواقعية وقال له : (فلنأخذ بعين الاعتبار الظروف التي نعمل تحتها، إننا نقع في هذه الأشياء بسبب ذنوبنا، لذلك نحن تحت سيطرة المسلمين الوثنيين، ونحن ممنوعون بكلمة الرسول[١٣] أن نقاوم السلطات. وفقط جزء واحد من العزاء يبقى وهو أنه داخل شر هذه المصيبة فإنهم لا يمنعونا من اتباع ديانتنا وعندما يروننا نتبّع المسيحية بجدٍ يعاملوننا باحترام ويفهموننا، والأكثر كذلك أنهم يندفعون في ذلك الطريق بواسطة اقتناعهم، حيث أنهم يرتعبون بالكامل من اليهود . لذلك في الوقت الحالي يجب أن نحافظ على هذا التشاور، حيث أنه لا شيء من واجبات ديننا نتخلى عنه، فيجب أن نطيعهم في كل الأشياء الأخرى ، ونراقب أوامرهم طالما أن هذه الأوامر لا تتعارض مع عقيدتنا) [١٤].

ويمكن أن نلاحظ من عبارة هذا الأسقف الأسباني المستعرب، وهو الذي يُفترض أنه يعمل لحساب الناصر، أن نعرته الدينية تميل – رغم واقعيته – مع الرأي الغربي العام، حيث وصف المسلمين بالوثنيين، وهو الوصف الذي أصبح شائعاً في أوربا في ذلك الحين. كما يمكن أن نلاحظ أن هذا الأسقف كان حريصاً على استمرار سياسة التسامح التي يسير عليها المسلمون إزاء النصارى، لذلك حاول أن يقنع الراهب المبعوث يوحنا الجورزي بالتخلي عن فكرة طلب الاستشهاد، لما قد يجره مثل ذلك التصرف من آثار سلبية على سياسة التسامح الإسلامي إزاء النصارى في الأندلس. لكن لا ندري من أين أتى الأسقف بهذا الزعم القائل بأن المسلمين يرتعبون بالكامل من اليهود. فالمعروف أن اليهود في ذلك الحين كانوا أهل ذمة يدفعون الجزية للمسلمين في كل مكان يتواجدون فيه داخل العالم الإسلامي.

وكيفما كان الأمر، فلم يقبل الراهب يوحنا الجورزي المنطق والواقعية التي تحدث بهما الأسقف المستعرب فردّ فوراً وبإنفعال وقال للأسقف : (لو أن شخصاً غيرك كان أسقفاً لكان أفضل أن يقول هذه الأشياء من أن تقترحها أنت فالكنيسة الكاثوليكية برمتها نشأت من المكروه وكذلك المستعربون –الأسبان– يجب أن يكونوا مُطهرين روحياً) [١٥] . ويفهم من هذا النص أن يوحنا الجورزي لم يكن راضياً عن كلام الأسقف المستعرب، لإنه يريده أن يكون من طراز المتعصبين الأسبان أمثال سبيرا يندو، وأولوخيو، وألفارو. ولذلك نجده يُعقّب على كلامه بالإستدلال بالآية الأولى من الإصحاح الخامس من رسالة بولس إلى أهل غلاطية التي يقول نصها : (فاثبتوا في الحرية التي حررنا المسيح بها ولا ترتبكوا بنير العبودية). كما استدل يوحنا الجورزي بنصوص

أخرى يعترض بها على تصرفات بعض المستعربين في تعاملهم مع المسلمين . ويزعم يوحنا الجورزي–الذي أورد نصوص هذه المناقشة– أن الأسقف المستعرب ارتعب من تلك النصوص، فرد بشكل ضعيف واهن قائلاً : (إن الضرورة تقيّدنا). فأجابه يوحنا الجورزي مقرّعاً حيث قال : (أما أنا فسوف لن أوافق أبداً على تجاوز القوانين الإلهية بسبب الخوف أو الحب أو أية مصلحة فانية ... ... أنا سوف أقاوم بصراحة، ولن أهرب عن الشهادة بالحق بصرف النظر عن حب الحياة نفسها)[١٦] .

وإذا تأملنا هذه الأقوال والاستدلالات التي كان يسوقها يوحنا الجورزي نجدها تتشابه إلى حد بعيد مع الاستدلالات والأقوال التي كان يسوقها الراهب الأسباني أولوخيو في التحريض والتبرير للحركة التي عرفت في المصادر الغربية بحركة شهداء قرطبة[١٧] . على أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : كيف تأثر يوحنا الجورزي بآراء أولوخيو وتبريراته لما زعمه حركة « الشهداء « ؟

الحقيقة أننا لا نجد جواباً مباشراً على هذه المسألة. ولكن يمكن أن نستشف الجواب في أثر ما أحدثته تلك الحركة التي تسمى « حركة الشهداء « في قرطبة من صدى وأثر في سكسونيا البعيدة إذا ما عرفنا أن إخوة أولوخيو قد هربوا من بلاد الأندلس بعد مقتل أخيهم سنة ٢٤٤هـ / ٨٥٩م ولجأوا إلى بلاد السكسون في بافاريا في المانيا[١٨] . ويمكن أن نتصور ما قاموا به من نشر آراء أخيهم ورسائله في الأديرة الألمانية، وما حملوه معهم من صور مشوهة وآراء ملفقة عن الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم خصوصاً بعد أن أصبحوا موتورين بمقتل أخيهم الذي قاد وبرّر حركة الانتحاريين المسعورين في قرطبة، والتي يطلقون عليها في الغرب حركة (شهداء قرطبة).

وخلال الفترة الطويلة التي أمضتها سفارة يوحنا الجورزي في قرطبة، في انتظار الإذن لها بمقابلة الخليفة عبد الرحمن الناصر، كانت السفارة تقضي معظم وقتها في مكان معزول عن الناس بأمر من الخليفة الناصر نفسه، وفي أحد الأيام سُمِحَ للسفارة بالذهاب إلى الكنيسة، وبعث الخليفة – كما تقول الرواية الغربية – برسالة على الرق إلى المبعوث يوحنا الجورزي. فانتابته المخاوف من محتويات الرسالة، لذلك أجّل قراءتها حتى الانتهاء من الصلاة في الكنيسة. وبعد قراءة الرسالة، زعم يوحنا الجورزي أن الخليفة الناصر هدّد في رسالته بقتل جميع نصارى الأندلس إذا ما أصرّ يوحنا على تسليم رسالة أوتو. ويبدو أن ذلك كان مجرد ضغط نفسي من الخليفة لإقناع يوحنا بالتخلي عن إصراره على تسليم رسالة أوتو التي تتضمن إساءات بالغة إلى الإسلام وإلى نبيه

محمد صلى الله عليه وسلم. فرد يوحنا على رسالة الخليفة مصراً بأن من واجبه الإخلاص لملكه أوتو الذي كلفه بتسليم الرسالة للخليفة وأنه (سوف يحافظ على إخلاصه دون انتهاك) [١٩] .

ويروي يوحنا الجورزي أن الخليفة الناصر لم يغضب من جوابه فعرض الأمر على أعضاء مجلسه، فاقترح أحدهم أن رسولاً مخلصاً مثل يوحنا ربما يكون حكيماً أيضاً، فليقترح هو بنفسه مخرجاً من هذه الأزمة. ولما عُرِضَ الأمر على يوحنا الجورزي اقترح حلاً مفيداً ، وهو أن يبعث الخليفة الناصر رسولاً إلى الملك أوتو للحصول على رسالة أحسن وألطف بدلاً من تلك الرسالة البغيضة التي يحملها يوحنا حتى لا يحدث صدام ديني بين الجانبين، بحيث تتضمن الرسالة الجديدة بياناً رسمياً بالعقيدة النصرانية دون التعرض مطلقاً بالهجوم على الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم[٢٠] . ومن هذا المقترح يتضح لنا أن رغبة يوحنا بالإستشهاد قد خمدت، ولعل المدة الطويلة التي قضاها محتجزاً في مكان معزول واللقاءات المتواصلة مع مندوبي الخليفة، وتقدمه في السن قد أسهمت في خمود تلك النزعة الطائشة، ولذلك فإن اقتراحه ينطوي على الرغبة في أداء مهمته الدبلوماسية العالمية دون السعي وراء الشهادة المزعومة التي هيمنت عليه عند وصوله إلى قرطبة .

وكان أن وجد الخليفة عبد الرحمن الناصر في اقتراح يوحنا الجورزي مخرجاً معقولاً لأزمة تلك البعثة التي طال مكوثها في قرطبة دون المثول بين يديه. فاختار من لدنه رسولاً يقوم بتلك المهمة إلى بلاط أوتو. وكان ذلك الرسول هو ريثموندو Recemundo أسقف البيرة. ويبدو أن الخليفة عبد الرحمن الناصر قد نجح في اختياره لرجل يمكنه تحقيق ذلك الحل الوسط، إذ يذكر السفير يوحنا الجورزي أن ريثموندو زاره – بعد اختياره مبعوثاً إلى أوتو – فسأله عن عادات وتقاليد ونظم مملكة أوتو، ومدى رحمته واعتداله مع شعبه، وهل هو سريع الغضب أم لا، وهل يتراجع عن قراراته، وهل سيطلق سراحه ولن يحتجزه عنده مدة طويلة مثل يوحنا. وكل تلك المعلومات التي حصل عليها ريثموندو من يوحنا الجورزي ساعدته على النجاح في مهمته[٢١] .

غادر ريثموندو بلاد الأندلس واجتاز فرنسا حتى وصل إلى بلاط أوتو في سكسونيا، وقابله وحصل منه على رسالة أفضل وألطف من تلك التي يحملها يوحنا الجورزي، ولا تتضمن أي إساءة إلى الإسلام، كما حصل منه على هدايا جديدة للخليفة الناصر. وأذِنَ له أوتو بالعودة لكنه أمضى وقتاً طويلاً متردداً على دير جورز الذي ينتمي إليه السفير يوحنا، ثم عاد إلى قرطبة بعد أن استغرقت رحلته سنة كاملة. وحاول ريثموندو أن يُسلِّم رسالة أوتو وهداياه مباشرة إلى

الخليفة الناصر، لكن الأخير أمره أن يسلّم كل ذلك إلى يوحنا الجورزي مكافأة له على انتظاره الطويل[٢٢] .

وهكذا تسلم يوحنا الجورزي رسالة أوتو وهداياه الجديدة من ريثموندو بعد انتظاره الطويل الذي دام زهاء ثلاث سنوات، وجرى الاتفاق على أن يحفظ يوحنا رسالة أوتو القديمة في كنيسة قرطبة، ويسلم للناصر بدلاً عنها رسالة أوتو الجديدة التي جاء بها ريثموندو. وأخيراً صدر أمر الخليفة الناصر بالإذن ليوحنا الجورزي بمقابلته. وقد جرى له استقبال مهيب، حيث وصف يوحنا ذلك الاستقبال وصفاً حياً، فذكر أنه أُخِذَ من ضاحية قرطبة التي أُحتُجز فيها مدة طويلة، ثم دخل إلى قرطبة حيث اصطفت على جانبي الطريق عساكر وجماهير كثيرة، وفرقاً عسكرية مدربة تمارس عروضاً بديعة لإظهار القوة، وعساكر أخرى تقوم بتدريبات عسكرية، وذلك على طول الطريق الذي يكتنفه الغبار في منتصف الصيف، وعند مدخل القصر الكبير كانت الأرض مفروشة بالسجاد والقماش، وبعد أن أُدْخِل القصر أُخذ إلى غرفة صغيرة حيث كان الخليفة عبد الرحمن الناصر جالساً بمفرده (كما لو أنه كان إلاهاً غير ممكن الوصول إليه سوى للبعض وكانت الجدران والأرضيات مغطاة والملك متكئ على سرير فخم، فهم لا يستخدمون الكراسي مثل الآخرين، بل يتكئون على سرير أو أريكة يتحدثون ويأكلون وأرجلهم متربعة فوق بعضها البعض) [٢٣] .

ولما مَثُل يوحنا بين يدي الخليفة رحّب به، فقدّم يوحنا هدايا ورسالة أوتو الجديدة، وتحدث بلباقة شديدة مع الخليفة متخلياً تماماً عن تلك الآراء المتعصبة التي كان يتحدث بها مع الأسقف المستعرب الذي طالبه بالواقعية بُعيد وصوله إلى قرطبة، بل ومدّ له الخليفة يده – كما جرت العادة مع المبعوثين – فقبّلها. ولم يعترض على شيء من مراسم الاستقبال التي قوبل بها سوى الاعتذار عن ارتداء خلعة الخليفة بحجة أنه راهب لا يرتدي غير زي الرهبان . ولما تحدث يوحنا عن موضوع سفارته الأصلي وهو كف غزوات إمارة فراكسينتوم عن المناطق المجاورة، أخبر الناصر يوحنا أن تلك الإمارة ليست تابعة له، ولا تأتمر بأمره[٢٤] .

وبعد ذلك سأل الخليفة يوحنا الجورزي عن الملك أوتو، فبالغ يوحنا في حديثه عنه وعن قوة مُلكه، وجرى الحديث بين الناصر ومبعوث أوتو عن اختلاف نظم الحكم بين مملكة الناصر ومملكة أوتو، حيث أظهر الناصر عدم موافقته على النظم الاقطاعية السائدة في مملكة أوتو وغيرها من الممالك الأوربية في ذلك الحين، والتي تتيح لأمراء الاقطاع ما يشبه السيادة الكاملة على إماراتهم، والتي قد تغريهم بالنزوع إلى الاستبداد والاستقلال عن الملك. وبعد أن أنهى يوحنا

الجورزي مهمته لدى الخليفة استأذنه بالقفول إلى بلاده فأذن له بذلك فعاد إلى سكسونيا ليروي قصة رحلته[٢٥] .

وإذا تأملنا قصة هذه السفارة يمكن أن نخرج بالملاحظات الختامية التالية:

أولاً :- أن البُعد الديني قد طغى على الهدف السياسي الأصلي لبعثة يوحنا الجورزي وهو كف غزوات إمارة فراكسينتوم (جبل القلال) على المناطق الأوربية المجاورة لها. فلم يرد في المناقشة التي جرت بين يوحنا والموظف المستعرب التابع للناصر أي حديث عن ذلك الهدف، وانصبت المناقشة - كما رأينا - على المضمون الديني للبعثة وكان ذلك هو السبب في تأخير هذه البعثة .

ثانياً :- أن الخليفة عبد الرحمن الناصر - بما عُرِفَ عنه من حكمة وبُعد نظر - توقع ما كانت تحويه الرسالة الأولى التي يحملها مبعوث أوتو الراهب يوحنا الجورزي، لذلك لم يأذن له بالمثول بين يديه بعد وصوله إلى قرطبة ، وظل يرسل المندوبين إلى يوحنا ليتأكد من صحة حدسه، ومعرفة مضمون الرسالة على وجه الضبط . فاكتشف صحة ما توقعه، بل وزيادة على ذلك تبين له نزعة مبعوث أوتو لنيل ما يعتقده استشهاداً عن طريق شجب الإسلام وسب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم علناً وفي مجلس الخليفة نفسه وهو ما يجعله يأمر بقتله حسب الشريعة الإسلامية، الأمر الذي سيكون له عواقب بعيدة المدى على العلاقة بين الناصر ودولة أوتو بخاصة، وبين الناصر والعالم الغربي النصراني بعامة، لأنه لا يمكن له السكوت على ذلك ، ولا بد له أن يحكم عليه بالحكم الشرعي، وهو الحكم السائد الذي سبق الحكم به على العشرات من أعضاء تلك الحركة المشار إليها. ولو سكت الخليفة عبد الرحمن الناصر على مثل تلك الإساءة بحضرته لاعتبارات سياسية، فإن ذلك قد يزعزع حكمه ويطيح بمكانته في نظر المسلمين. لذلك تجنب الناصر حدوث تلك المقابلة، وأطال في احتجاز يوحنا الجورزي ، حتى خمدت رغبته في الانتحار - الذي يحسبه استشهاداً - بل واقترح بنفسه حلاً كان هو المخرج من الأزمة حيث أشار بإرسال رسول إلى أوتو للاتيان برسالة بديلة لا تتضمن القدح في الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

ثالثاً :- لقد أرسلت حكومة قرطبة سلسلة من المندوبين إلى الراهب يوحنا الجورزي في مكان احتجازه للاستخبار عن مضمون رسالة أوتو، ولمعرفة نوايا الراهب يوحنا، ومحاولة التخفيف من غلوائه. وكنا قد أشرنا إلى دور الأسقف المستعرب في ذلك. وكان المندوب الأول في تلك السلسلة

موظفاً يهودياً يعمل في بلاط الناصر، ذكر يوحنا أنه أعطاهم فكرة واضحة عن العادات المحلية في قرطبة، وأنه يجب عليهم مراعاة تلك العادات فيما لو سُمِحَ لهم بالتجوّل في قرطبة، وأنه يجب عليهم الحذر في حديثهم مع الناس، والبعد عن الأحاديث والتصرفات السخيفة والطائشة، وعدم الإيماء إلى النساء حتى عن طريق المزاح، لأن ذلك قد يجلب عليهم المصائب. كما ذكر يوحنا أن اليهودي حرص على معرفة مضمون الرسالة وأن يوحنا لم يخف عنه شيئاً من مضمونها. فنصح المندوب اليهودي الراهب يوحنا بعدم تسليم الرسالة مطلقاً للخليفة. لكن يوحنا كان مصراً على تقديم هدايا ورسالة أوتو بنفسه. ويبدو أن نتائج زيارة المندوب اليهودي للراهب يوحنا الجورزي هي التي جعلت الخليفة الناصر يواصل احتجازه، ويمتنع عن مقابلته، ويرسل المندوبين تباعاً إليه، حتى تمكن من الوصول معه إلى ذلك الحل الوسط في نهاية المطاف[٢٦].

رابعاً :- أن يوحنا الجورزي عندما روى قصة بعثته لصديقه يوحنا المتزي - الذي كتب سيرته بعد وفاته - حاول أن يجعل مواقفه وتصرفاته تبدو وكأنها عفوية طبيعية، بينما الحقيقة أن كثيراً من مواقفه كانت محسوبة طبقاً لأعراف وتقاليد الدبلوماسية في ذلك العصر[٢٧].

خامساً :- إذا كانت حنكة عبد الرحمن الناصر وبُعد نظره قد أسهمت في تغيير موقف السفير يوحنا الجورزي، وجعله يشير بإرسال رسالة أحسن وألطف بدلاً عن الرسالة المقيتة التي كان يحملها. وأن أوتو قد استجاب لذلك المقترح، مراعاة للعلاقات السياسية، والمجاملات الدبلوماسية، فإن ذلك لا يعني تغييراً أو تعديلاً في الصور المشوهة و الأفكار الملفقة عن الإسلام التي أخذت تروج وتتوطد وتترسخ في سائر بلاد الفرنجة والأنجلو سكسون والتي أسهمت بعد أكثر من قرن من الزمان في قيام الحروب الصليبية .

الهوامش

١- تحدثت بعض المصادر العربية عن تلك المراسلات بغموض وإيجاز، فلم تشر إلى مضامين تلك المراسلات. انظر على سبيل المثال: ابن عذاري : البيان المغرب؛ بيروت ١٩٨٠م جـ٢ ص ٢١٨؛ تاريخ ابن خلدون جـ٤ ص١٨٣. أما المصدر الغربي الأصلي الذي يعتمد عليه الباحث في إلقاء هذه الأضواء الجديدة على سفارة الملك أوتو الثانية إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر فهو ما كتبه يوحنا المتزيJohn of Metz الذي كان صديقاً ليوحنا الجورزي John of Gorze مبعوث أوتو إلى الناصر والذي صنف كتاباً بعد وفاة يوحنا الجورزي سنة ٩٧٤م، وأورد فيه قصة تلك البعثة معتمداً على رواية صديقه الجورزي لها، انظر:

Gorziensis auctore Johanne abate S. Arnulfi, ed. G.H.. Vita Johannis abbatis Pertz. (1841). in Mounmenta German Hist. SS 4:p.371

٢- ابن حوقل : صورة الأرض، ط القاهرة، بدون تاريخ ص ١٨٥.

٣- Liutprand, Bishop of Cremona : Antapodosis, in the works of liudprand of Cr-. mona. Trans by F.A. Wright. London. 1950. pp. 33-189; Rudolf Glaber: Historiae. Vol.I. in Monumenta German Hist. SS.7.pp. 54-55; Ex Syri: Vita. S. Maioli. in Monumenta German. Hist. SS 4.pp.652-653; Reinaud. M: Invasions des Sarazins ek France. Librairie Orient. Paris. 1964. pp. 158-209; P.A. Amargier: La Capture de Saint Maiel de Cluny et L>expulsion des Sarrasins des Provence Revue Bendectine. ,73(1963) pp. 319 - 325

وانظر أيضاً من المراجع العربية : الأمير شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط ص ٢٠٧-٢٦٠، ٣٠٧-٣٢٦؛ محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، الخلافة الأموية والدولة العامرية ص ٤٦٤-٤٧٩.

٤- Painter,Sidney:A History of the Middle Ages,284-1500 (London. 1975,1976)pp. .165-167

٥- Vita Iohannis abbatis Gorziensis: op. cit. SS 4.p.369; Reinaud: op. cit. p.174; El-Hajji. Abdurrahman Ali : Andalusian Diplomatic Relations. Beirut. 1970 pp. 313-314; Daniel. Norman : The Arabs and Mediaeval Europe. London. 1975. p.65; Kedar. Benjamin Z:Crusade and Mission European Approaches toward the Muslims. Princeton. New Jersey. 1988. P. 38

٦- يمكن أن نسترشد في هذه النقطة برسالة هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٩م) إلى الامبراطور البيزنطي قسطنطين السادس (١٦٣-١٨١هـ / ٧٨٠-٧٩٧م) والتي صاغها له العالم الحجة أبو الربيع

محمد بن الليث ، والتي بدأها بقوله : (من عبدالله هارون أمير المؤمنين إلى قسطنطين عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى ...) ثم حمد الله جل وعلا بمحامده والثناء بآلائه، ثم بيّن أن من واجبه تبليغ دعوة الإسلام والإعذار إلى من لم تبلغه تلك الدعوة، ثم بسط فيها بشكل مسهب عقيدة التوحيد كما جاءت في القرآن الكريم، فبيّن توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ووحدانية الله جل وعلا في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرح كل ذلك بالأدلة القوية والحجج البالغة والبراهين القاطعة، ودحض من خلال عرضه كل الدعاوى القائلة بأن لله ابن أو شريك. ثم فنّد بعد ذلك بالأدلة العقلية المنطقية العقيدة النصرانية القائلة بأن الله تعالى إله واحد مكوّن منه ثلاثة أقانيم هي الأب والابن وروح القدس، وناقشها وبرهن على تناقضها وتنافرها وعدم اتساقها مع العقل والمنطق السليم ، ثم عرض وشرح بعد ذلك أكثر من عشر بشارات بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم وردت في العهدين القديم والجديد، ثم شرح بشرية وعبودية السيد المسيح لله سبحانه وتعالى مستدلاً بعدد من الآيات الواردة في الأناجيل المتداولة بين النصارى . وهذه الرسالة تقع في أكثر من تسعين صفحة. انظر: رسالة أبي الربيع محمد بن الليث التي بعث بها الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم : شرح وتعليق أسعد لطفي حسن، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، ١٣٥٥هـ /١٩٣٦م .

٧- عن كتب الجدل البيزنطية والأسبانية انظر بحث علي محمد عودة الغامدي : الرؤية الأوربية للعرب والإسلام خلال العصور الوسطى ، في كتاب العرب وأوربا عبر عصور التاريخ ، حصاد (٧) ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب بمقره في القاهرة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص ٥٩-٦٨.

٨- Vita Iohonnis abbatis Gorziensis: op. cit. , SS4. p. 370; El – Hajji: op. cit., pp. 314-316; Reinaud: op. cit., p. 187; Daniel: op. cit., pp. 64-65

وقد تزامن موعد سفر يوحنا الجورزي إلى قرطبة مع عودة ليتبراند الكرموني من بعثته الأولى إلى القسطنطينية التي قام بها بالنيابة عن المركيز برينجارBerengar قبل أن يلتصق برينجار بالتبعية للملك أوتو، وقبل أن يتدخل الأخير في ايطاليا ويصبح أمبراطوراً. وليتبراند هذا هو مؤلف كتاب المكافأة Antapodosis (انظر ما سبق حاشية رقم ٣) الذي يعتبر من أوسع المصادر الغربية القديمة التي تحدثت عن إمارة فراكسينتوم (جبل القلال) وغزواتها على المناطق المجاورة لها قرب جبال الألب. وبعد سنوات قليلة أصبح ليتبراند على علاقة صداقة متينة مع السفير المستعرب ريثموندو Recemundo أسقف البيرة (الذي تسميه المصادر العربية الأندلسية ربيع بن زيد)، وهو الذي أرسله الناصر إلى أوتو لإيجاد حل لمشكلة بعثة يوحنا الجورزي – كما سنتحدث في الصفحات التالية – وقد التقى ريثموندو وليتبراند الكرموني في تلك الرحلة وانعقدت بينهما تلك الصداقة حيث أهدى ليتبراند كتابه المذكور إلى ريثموندو ، وذكره في بعض صفحات الكتاب عند حديثه عن الأندلس ، انظر: Danhiel: op. cit., pp. 64-65 ، وعن ترجمة ربيع بن زيد : ريثموندو انظر : المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد العلماني، ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ط بيروت ١٩٦٨م جـ ٣ ص ١٨٦.

٩- Daniel : op. cit. pp. 66-68; Ashtor. E: The Jews of Moslem Spain. trans. A. Klein and J. Klein. Vol. I (Philadelphia. 1973). p. 421

١٠- انبثقت هذه الحركة نتيجة الكراهية المقيتة للإسلام التي انتشرت في الأديرة الأسبانية لا سيما في نافار في الشمال وحول قرطبة ، وهي الكراهية التي يصفها نورمان دانيال بأنها : (بئر من الكراهية يُجدّد باستمرار) انظر: Daniel. op. cit.. p.45 ؛ وبدأت تلك الكراهية بصورة جلية بظهور المقالة الأسبانية عن محمد صلى الله عليه وسلم في أواخر القرن الثاني الهجري/ أوائل القرن التاسع الميلادي في دير بنبلونة في نافار وهي مقالة تصور النبي صلى الله عليه وسلم بصورة مجافية للذوق ومعاكسة لصفاته تماماً. انظر بحث : الرؤية الأوربية للعرب والإسلام خلال العصور الوسطى، مرجع سبق ذكره، ص 56، وكان أول من دعا إلى الاستشهاد ضد الإسلام في سبيل نصرة النصرانية، هو الراهب، سبيرايندو Spera in deo رئيس دير شويلش قرب قرطبة، وكان شديد التعصب والحقد على الإسلام، وهو المعلم الذي تربّى على يديه أولوخيو Eulogius وبول الفارو Paul Alvarus وهما المتعصبان القرطبيان اللذان حرّضا على قيام ما عُرف بحركة (شهداء قرطبة). وقد صنف سبيرايندو عملاً مضاداً للإسلام على هيئة أجوبة نصرانية على اعتراضات إسلامية، وزعم أن القرآن يصوّر الجنة وكأنها (بيت دعارة). وقد التقى الفارو مع أولوخيو في مجلس أستاذهما سبيرايندو فتصادقا واتحدت أفكارهما المعادية للإسلام ثم ذهب أولوخيو إلى بنبلونة وأحضر المقالة الأسبانية، وزادت عداوته للإسلام ، ثم شرع يكتب هو والفارو العديد من الكتب تحرّض على الاستشهاد ضد الإسلام، وبدأت تلك الحركة بتحريضهما في سنة 235هـ/850م عندما بدأ عدد من الرهبان يسبون النبي صلى الله عليه وسلم علناً في الأسواق والأماكن العامة، وعندما يؤخذون إلى القاضي يكررون مقالاتهم البذيئة فيصدر الحكم الشرعي عليهم بالإعدام، وقد بلغ عدد من أُعدم في تلك الحركة نحو ٥٠ شخصاً كان آخرهم أولخيو وبعده الفارو ، ودامت الحركة زهاء عشر سنوات. انظر :

Frank. F.R: Die Freiwilligen Martyrer von Cordova und das Vernaltnis der Mazaraber zum(nach den Schriften von Speraindeo. Eulogius und Alvar). In Gesammelte Aufsatze zur Kulturgeschichte Spaniens. 13. 1958: 1-170. Pp. 50-58; Danniel: op. cit.. pp. 23-48; Colbert. E.P. The Martyrs of Cordoba (850-859): A Study of the Sources. .Washington. 1962. Pp. 157-162

١١- لقد أصبح لتلك الحركة ذيول على شكل حوادث متفرقة على النمط نفسه، استمرت بضعة قرون في بلدان مختلفة. ومن تلك الذيول التي حدثت زمن عبد الرحمن الناصر ما حدث سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م عندما جاء شاب غالي من فرنسا يُدعى بيلاجيوس Pelagius فوصل إلى قرطبة سنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م وسب الإسلام ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم جهاراً فحوكم وأُعدم في السنة نفسها، ورفعته الكنيسة إلى درجة قديس. وكان لمقتله صدىً كبيراً في بلاد السكسون، ولا سيما من جانب الراهبة والشاعرة الألمانية

هروتسفيثا من جاندرشيم Hrotsvitha of Gandrshim ، المتوفاة سنة ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م، وكانت هذه الراهبة قد اشتهرت بترانيمها الدينية في تمجيد مريم العذراء ، فوضعت سيرة لهذا المقتول بيلاجيوس تحت عنوان (آلام القديس بيلاجيوس) وتزعم هروتسفيثا في هذه السيرة أن النصارى في أسبانيا ممنوعون بسبب عقوبة الموت أن يسبوا المعبودات الوثنية المصنوعة من الذهب والرخام التي يعبدها الحكام المسلمون. وقد راجت هذه التهمة الباطلة في البلاد الخاضعة للفرنجة والسكسون . انظر :

Passio S. Pelagii. Lines 56-58. in Hortsvithae opera. editor. P. Winterfeld (1902). in Monumenta German Hist. Scr.rer. Germ. 34: 53.

أما الحادثة الثانية فهي التي حدثت بعد ست سنوات من حادثة بيلاجيوس، عندما اشتاق رجل فرنجي من غاليا (فرنسا) يدعى فولفورا Vulfura إلى ما يعتقده استشهاداً فجاء إلى قرطبة سنة 319هـ/931م فسب الإسلام علناً فحوكم ورفض انقاذ نفسه بالدخول في الإسلام فأُعدم في السنة نفسها . انظر :

Vita Argentee et Comitum eius Martyrum. editor Fabrega Grau. in Pasionario hispanico (Siglos VII-XI). 2 vols (Madrid and Barcelona. 1953-1955). 2: 382-387.

١٢- Vita Iohonnis abbatis Grziensis: op. cit.. SS 4. P. 370; El-Hjji: op. cit.. p. 316; Daniel : op. cit.. pp. 65-66

١٣- يشير بذلك إلى ما جاء في أعمال الرسل، سيما في رسالة بطرس الأولى : الأصحاح الثاني، 18-23 ، ومما جاء فيها قوله : (أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ليس للصالحين المترفقين فقط بل للعنفاء أيضاً ... ... الذي إذا شُتِمَ لم يكن يَشتُم) .

١٤- Vita Iohonnis abbatis Grziensis: op. cit.. SS 4. Pp. 370-371; El-Hjji op. cit.. 316-317; Daniel: op. cit.. p. 66

١٥- Vita Iohonnis abbatis Grziensis: op. cit.. SS 4. P. 371; Daniel : op.cit p. 66 .

١٦- Vita Iohonnis abbatis Grziensis: op.cit.. SS 4. P. 371; El-Hjji: op. cit , p. 317; Daniel: op. cit.. pp. 66-67

١٧- لمقارنة أقوال واستدلالات يوحنا الجورزي مع أقوال واستدلالات أولوخيو يمكن الرجوع إلى المراجع التالية:

pp. 50-58; Daniel: op. cit.. pp. 23-48; Dozy. R: Spanish Islam Frank: op.cit.. « A history of the Moslem in Spain» trans by Fancis Griffin Stokes. London.1972, pp. 269-306.

١٨- Migne. Patrologia Latina. Vol. 115. Col. 845. 847; Kedar: op. cit., p.34

١٩- Vita Iohonnis abbatis Grziensis: op. cit., SS 4. p.371; El-Hjji: op. cit., p.317; Daniel: op. cit., p. 67

٢٠- Vita Iohonnis abbatis Grziensis: op. cit., SS 4. Pp. 371-372; El-Hjji: op. cit , pp., 317-318; Daniel: op. cit., p. 67

٢١- Vita Iohonnis abbatis Grziensis: op. cit., SS 4. P. 372; El-Hjji: op. cit, p.318; Daniel : op. cit., pp. 67-68

٢٢- Vita Iohonnis abbatis Grziensis: op. cit., SS 4. Pp. 372-373; El-Hjji: op. cit p. 318; Daniel: op. cit., p. 68

٢٣- Vita Iohonnis abbatis Grziensis: op. cit.,SS 4. P.373; Daniel: op. cit., p.69

٢٤- Vita Iohonnis abbatis Grziensis: op. cit. SS 4. Pp 373-374; Reinaud: op. cit. p. 193; El-Hjji: op. cit., p. 318; Daniel: op. cit., p. 69

٢٥- Vita Iohonnis abbatis Grziensis: op. cit. SS 4. Pp 374-375; El-Hjji: op. cit, pp. 318-319 ; Daniel: op cit., p. 69

٢٦- Vita Iohonnis abbatis Grziensis: op. cit. SS 4. Pp 370-375; El-Hjji: op. cit pp. 316-317 ; Daniel: op. cit., p. 68; Ashtor: op. cit., pp. 421-422

٢٧- Daniel: op. cit., p. 69 .

تاريخ الوطن العربى عبر العصور

الوفود و السفارات

حصاد (١٧)

ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب بمقره بالقاهرة

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

الغلاف: عمرو قاسم